مقدمة

عُنيَت اللسانيات في بدايتها بعلمنة دراسة الظواهر اللغوية، فوضعت مبادئ خاصة وسطَّرت حدودا واضحة تخص المادة والمنهج والمجال، تتوافق مع هدف اللسانيات وإستراتيجية اللسانيين في تقنينهم للنظام اللغوي. وقد كان لها ذلك بعد أن حدَّدت موضوعها باللغة النظام، وحكَّمت منهجها بمقولة الآنية، واستطاع اللسانيون صياغة قواعد وضوابط للبنيات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، مستندين في ذلك على الافتراض، جاعلين الجملة نموذجهم الأكبر في التحليل.

ولكنّ هذا الطرح المبرَّر فرضته مرحلة التشكل فقط؛ إذ لا يمكن استساغة إقصاء الكلام وتمثُّلاته النصية والخطابية من دائرة البحث اللساني، كما لن يتأتى وصف اللغة بعمق مع استمرار التحفظ تجاه المعنى والمقام. فقد تعالت الأصوات من داخل الدرس اللغوي وخارجه مطالبة بإيجاد قواعد وقوانين تتماشى مع البنيات فوق الجملية، وتفعيل الوصف ليكون قادرا على رصد الدينامية المنبثقة من النظام الواقعي للغة الطبيعية. من هذه الزاوية تشكلت لسانيات النص، بوصفها فرعا معرفيا يختص بوصف أدوات التماسك النصي وباستنباط نصية الملفوظ بناءً على وظائف لسانية وعبر لسانية.

وتكمن أهمية لسانيات النص في مفاهيمها التنظيرية للمستجدات اللسانية والتداولية وكذلك إسهاماتها العملية في حقل تعليمية اللغات، فضلا عن شمولية الإجراءات المتخذة في إثبات النصية؛ هذه الشمولية استوجبتها الطبيعة الكلامية للنص والخطاب بمختلف أنواعهما ومقاماتهما. وهنا يستوقفنا الخطاب الشعري، بوصفه أكثر أنواع الخطابات إبداعية في استعمال اللغة وجمالية في بناء الأسلوب وإيحائية في توظيف الألفاظ.

– فكيف تتعامل لسانيات النص بانفتاحها على التنوع وشمولية إجراءاتها مع الخطاب الشعري؟ هل تسيطر آلياتها ومعاييرها على جماليته أم تكتفي بالوصف اللساني المحض؟ وما مدى تحقق ذلك في خطاب "عاشق من فلسطين"؟

حاولنا في هذا البحث الموسوم بـ"**الخطاب الشعري من منظور لسانيات النص، قصيدة "عاشق من فلسطين"لمحمود درويش أنموذجا**" درءَ الغموض الناجم عن محاورة العلم للجمال، وإزالة التعارض المرتقب من جراء استنباط الفعل التواصلي من خطاب يستغنى

عنه كثيرا. ولم تكتمل هذه الفكرة وتتحقق إلا بعد تنامي دواعي البحث في هذا الموضوع، وقد كان أهمها:

❖ اشتغال النصانيين على النصوص دون الخطابات؛ أي إنهم عزفوا عن استظهار عناصر التواصل في مقاربتهم لنصية المعطى اللغوي، وهذا ما صيَّر معالجتهم تنحو إلى السطحية والإحصاء المحض. وكان الأجدى أن يتعمقوا في عرض دقائق التحليل النصي وأبعاده.

❖ يتميّز النص الأدبي وبخاصة الخطاب الشعري بقدرة فائقة على استيفاء قواعد اللغة واستعمالاتها الخلاقة، وفق ما يقصده الشاعر وتمليه رؤيته للعالم، وما يتوقعه المتلقي وتفرزه قراءته. وهو ما اتسم به خطاب "عاشق من فلسطين" إلى حد بعيد.

❖ مثّل هذا الخطاب وصلة تفاعلية، تتساند فيها التجربة الشعرية الإبداعية والمعرفة الخلفية والمقامية عن الواقع الفلسطيني، مما يتيح إمكانات التحاور والتجاوب بين البناء الداخلي اللغوي والبناء الخارجي، ويتجسد عمليا اختبار التأويل في ملامسة موضوع الخطاب.

❖ ويضاف إلى ما سبق عمق الرسالة وإنسانيتها في شعر درويش؛ إنها تعبر عن خواطر الطفل ولمسة أمه، وحال المنفي ونار أشواقه، رسالةٌ تخاطب الفرد والأسرة والمجتمع والعالم بأسره، تصور لهم حجم المعاناة ومرارة الاحتلال؛ بدءا من الحنين إلى ملح الخبز واللحن وصولا إلى فقدان طعم الأرض والوطن. وقبل هذا المضمون الإنساني الذي غلب على تجربة درويش تَبرُز طاقة تصويرية خلاقة في أسلوب شعري رفيع، أكدتْ تمكّنَ الشاعر من ناصية اللغة ورسخت اعتقادنا بضرورة معاينة ذلك لسانيا من خلال نموذج "عاشق من فلسطين".

ولا نزعم أنها المحاولة الأولى في مقاربة الخطاب الشعري من منظور لسانيات النص؛ فقد سبقتها جهود رائدة كان أشملها تنظيرا وتطبيقا دراسة محمد خطابي **"لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب"**. على أن فصل خطابي بين المستويات اللغوية في الجزء التطبيقي قد حال دون إبراز تداخل الأبنية النصية وتفاعلها خطابيا، ثم إن عرض وسائل الاتساق في المستويين المعجمي والنحوي عابه غياب أبعادها التواصلية، وقلة اهتمام بالجانب الجمالي فيها.

من أجل ذلك حرص بحثنا على مراعاة الاطراد والشمولية في وصف الآليات النصية في الخطاب الشعري، كي نتمكن من وضعِ حدود واضحة وعامة نسبيا نسعى من ورائها إلى استنباط دينامية الخطاب من خلال وسائل الاتساق والانسجام.

واستوجب تحقيق تلك الأهداف منهجا علميا قادرا على استكناه قواعد النص ورصد ديناميته، فكان المنهج الوصفي خير معتمد، وبالأخص في الجانب التطبيقي. أما الفعل التأسيسي فتنوعت طرائق عرضه بين التاريخية والوصفية والمقارنة، وفي ذلك ما يدل على حداثة لسانيات النص، وتشعب مفاهيمها، وتنوع اتجاهاتها. واستعان البحث بعدة رسومات وجداول بغية معالجة أعمق وأدق للأبنية النصية. وسار البحث وفق الخطة الآتية:

– **مقدمة**: أوضحنا فيها الإطار العام للبحث ومحتوى لسانيات النص وأهميتها، ثمّ عرجنا على إشكالية البحث ودواعي الخوض فيه، فوقفنا عند هدف البحث وما تطلبه من منهج وخطة، وتبع ذلك ذكر الصعوبات التي واجهتنا.

– **الفصل الأول**: تضمن مراجعة نقدية لبعض المقولات اللسانية ومفاهيم لسانيات النص واتجاهاتها، والإطار العام الذي ستسير عليه الدراسة التطبيقية. هذه الأخيرة التي توزعت على محورين شاملين هما الاتساق والانسجام؛ شغلت فصلين كاملين.

– **الفصل الثاني**: عرضنا فيه مفهوم الاتساق ووسائله، مستفيدين من الطرح اللساني الغربي وعائدين إلى بعض الجذور العربية لوسائل الاتساق. ولم يتأت لنا التحقق من خصوصية الاتساق في الخطاب الشعري إلا بالتطبيق على قصيدة "عاشق من فلسطين".

– **الفصل الثالث**: تناولنا فيه الانسجام بالطريقة نفسها التي عرضنا بها الاتساق على القصيدة نموذج التطبيق.

– **الخاتمة**: تضمنت عرضا لأهم النتائج.

وإذا كان هذا حال الوضع فقد تصدت لمبدأ الجمع إضبارة من الكتب التي تنوعت بين الوافد والموروث والقديم والجديد؛ مما ينبئ عن رؤية أصيلة ومستنيرة للموضوع.

وفي موازاة ذلك قد جابهتنا بعض الصعوبات؛ التي تعود بصورة كبيرة إلى طبيعة الموضوع، تصدَّرها التشعب الكبير في مفاهيم هذا العلم ومصطلحاته، ثم تلته الصعوبة

الكامنة في محاورة العلم للشعرية، بحيث صَعُب علينا ضبط حدود العلم والجمال، وكيف يُوصف هذا وأين يتوقف ذاك؟

وفي هذا المقام لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر وخالص العرفان للمشرف الأستاذ الدكتور: **محمد خان**، إني وجدته موجِّها على ضآلة معرفتي وقلة حيلتي، مقوما لعثراتي الجسيمة، نعم المشرف ونعم الأستاذ.